أحاديث الإيمان

أحاديث الإيمان

(21)

**حديث قل آمنت بالله فاستقم**

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

**أمَّا بعد:**

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ - وَفِى حَدِيثِ أَبِى أُسَامَةَ غَيْرَكَ - قَالَ « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ »رواه مسلم وفي رواية لأحمد «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثم اسْتَقِمْ»

هذا الحديث العظيم يعد من جوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم، فقد طلب سفيان رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمه كلاما جامعا لأمر الإسلام كافيا حتى لا يحتاج بعده إلى غيره فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : (( قل : آمنت بالله ، ثم استقم )). وهذا منتزع من قوله - عز وجل -: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأحقاف:14،13]، وقال الله - جل وعلا -: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت:30 - 32].

والاستِقامة يترتَّب عليها سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ، وفلاحُ العبدِ وصلاحُ أمرِه كلِّه؛ فحقيقٌ بالنَّاصح لنفسِه الرَّاغب في سعادتِها أن يُعْنَى بالاستقامة على الدين عظيمَ العنايةِ؛ علمًا وعملًا وثباتًا على ذلك إلى الممات، مستمدًّا العونَ من الله - تبارك وتعالى -، فالاستقامة مِنة إلهية وهِبة ربَّانيةٌ، ففي آياتٍ كثيرة من كتاب الله - سبحانه وتعالى - يضيف الله - عز وجل - إلى نفسه الهدايةَ إلى صراطِه المستقِيم، وأنَّ الأمرَ كلَّه بيدِه - عز وجل - يهدي مَن يشاءُ، ويُضلُّ مَن يشاءُ، وبيده - سبحانه وتعالى - قلوب العباد، فمَن شاءَ أقامَه - تبارك وتعالى - على الصِّراط، ومن شاء أزاغَه.

قال الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا . وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا . وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} وقال الله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء:175]، وقال الله تعالى: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [يونس:25]، وقال الله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ . وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:27 - 29]. والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ

وقد كانَ أكثرُ دعاءِ النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم -: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، قالت أمُّ سَلَمة: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَوَ إِنَّ القُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟ قَالَ: «نَعَمْ؛ مَا مِنْ خَلْقِ اللهِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله، فَإِنْ شَاءَ اللهُ - عز وجل - أَقَامَه، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ».

فالاستقامةُ بيَد الله، فمَنْ أرادَها لنفسِه؛ فليطْلُبها منَ الله، وليُلِحَّ في السُّؤال، وقد جاء في «صحيح مسلم» من حديث عائشة - رضي الله عنها - أنَّها سُئِلت: بأيِّ شيءٍ كانَ النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - يفتَتِحُ صلاتَه من اللَّيل؟ قالت: إذا قامَ من اللَّيل افتتَح صلاتَه: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فهذا كان - عليه الصلاة والسلام - يقولُه كلَّ ليلةٍ في افتتاحِه لصلاةِ اللَّيل: «إنَّك تَهدِي مَنْ تَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

كان الحسَن البَصري - رحمه الله - إذا قَرأ قولَ الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} [فصلت:30] قال: «اللَّهُمَّ أنتَ ربُّنا، فارزُقْنا الاستقامَةَ».

وحقيقة الاستقامَة لزوم المنهجِ القويمِ والصِّراطِ المستقيمِ.

قال صدِّيقُ الأمَّة أبو بكر - رضي الله عنه - في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} [فصلت:30]: «هُم الَّذين لم يُشركوا بالله شيئًا» .

ورُوي عن عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه -، أنَّه قرأ هذه الآيةَ على المنبر: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}، فقال: «لم يَرُوغوا رَوَغان الثَّعلب».

وعن ابنِ عبَّاس - رضي الله عنهما - في معنى قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَقَامُوا}: «على شهادة أن لا إله إلَّا الله»؛ ورُوي نحوه عن أنس ومجاهد والأسود بن هلال وزيد بن أسلم والسُّدِّي وعِكرمة وغيرِهم .

ورُوي عن ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - أنَّه قال: «استقامُوا على أداءِ فرائضِه».

وعن أبي العَالية قال: «ثمَّ أخلَصُوا له الدِّين والعَمل».

وعن قَتادة في قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَقَامُوا} قال: «استقاموا على طاعة الله».

ذكر هذه الأقوال ابنُ رجَب - رحمه الله ثم قال: «والاستقامَة: هيَ سلوكُ الصِّراط المستقيم، وهو الدِّينُ القيِّم منْ غَير تَعريجٍ عنه يَمنةً ولا يَسرةً، ويشمَل ذلك فعلَ الطَّاعات كلِّها، الظَّاهرة والباطنة، وتركَ المنهيات كلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيَّةُ جامعةً لخِصال الدِّين كُلِّها».

وأصلُ الاستقامَةِ استقامةُ القلبِ، روى الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - عنِ النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم -، أنَّه قال: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ».

قال الحافظ ابن رجَب - رحمه الله -: «فأصلُ الاستقامةِ استقامةُ القلب على التَّوحيد.

كما فسَّر أبو بكر الصِّدِّيق وغيرُه قولَه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} بأنَّهم لم يلتفتوا إلى غيره.

فمتَى استقامَ القلبُ على معرفةِ الله، وعلى خشيتِه، وإجلاله، ومهابتِه، ومحبَّتِه، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتَّوكُّلِ عليه، والإعراض عمَّا سواه؛ استقامَت الجوارحُ كلُّها على طاعتِه، فإنَّ القلبَ هو ملِكُ الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقامَ الملِك؛ استقامَت جنودُه ورعاياه».

والاستقامةُ المطلُوبَة منَ العبدِ هي السَّدَاد فإنْ لم يقدر فالمُقارَبة.

وقد جمعَ النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - هذيْن الأمرينِ في قوله: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبه، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا» .

وقد قال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - لعليٍّ - رضي الله عنه - لمَّا طلبَ منه أنْ يعلِّمَه دعاءً يدعُو اللهَ به، قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي»، قال: «وَاذْكُرْ بِالهُدَى؛ هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ»

وأخبر - صلى الله عليه وسلم - أنَّ النَّاس لن يُطيقوا الاستقامةَ حقَّ الاستقامةِ، كما خرَّجه الإمام أحمد، وابن ماجه من حديثِ ثوبانَ عن النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - قال: «استَقِيمُوا ولَنْ تُحْصُوا، واعْلَمُوا أنَّ خيرَ أعمالِكُم الصَّلاةُ، ولا يُحافِظُ على الوضُوء إلَّا مُؤْمنٌ»، وفي رواية للإمام أحمد: «سدِّدوا وقَاربوا ولا يُحافِظ على الوُضُوءِ إلَّا مُؤْمِنٌ»، وفي «الصَّحيحين» عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّ النَّبيَّ - صلى الله عليه وسلم - قال: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا».

وفي هذا المعنى يقولُ ابنُ القيِّم - رحمه الله -: «والمطلوبُ منَ العبد الاستقامةُ وهيَ السَّداد، فإنْ لمْ يَقدِر عليهَا فالمُقارَبَة، فإنْ نَزل عنهَا، فالتَّفريطُ والإضَاعةُ».

هذا وثمرة الاستقامة على الصراط المستقيم في الدُّنيا التوفيق للاستقامة على الصِّراط المنصوبِ على مَتن جهنَّم.

فإنه يُنصب يومَ القيامةِ صراطٌ على مَتن جهنَّم أحَدُّ منَ السَّيف وأدقُّ منَ الشَّعر، ويُؤمَر النَّاس بالمرور عليه، ويتفَاوَتون في مرورهم عليه تفاوتَهم في الأعمالِ والاستقامةِ على صِراط الله المستقيم في هذهِ الحياةِ الدُّنيا.

قال ابنُ القيِّم - رحمه الله -:

«فمَنْ هُدِي في هذه الدَّار إلى صراطِ الله المستقيمِ الَّذي أرسَل به رسُله، وأنْزَل به كُتبَه؛ هُدِيَ هُناك إلى الصِّراط المستقيم المُوصِل إلى جنَّتِه، ودار ثَوابه، وعلى قَدر ثُبوتِ قَدمِ العبدِ على هذا الصِّراط الَّذي نَصبَه الله لعبادِه في هذه الدَّار يكونُ ثُبوت قدمِه على الصِّراط المَنصُوب على مَتنِ جهنَّم، وعلى قَدر سَيْره على هذه الصِّراط يكونُ سَيْرُه على ذاك الصِّراط؛ فمِنهُم من يَمُرُّ كالبَرق، ومِنهُم من يَمرُّ كالطَّرف، ومِنهُم من يَمرُّ كالرِّيح، ومِنهُم مَن يَمرُّ كشَدِّ الرِّكابِ، ومِنهُم مَن يَسعى سعيًا، ومِنهُم مَن يَمشي مشيًا، ومِنهُم مَن يحبُو حَبْوًا، ومِنهُم المَخدوشُ المُسَلَّم، ومِنهُم المُكَرْدَس في النَّار، فليَنْظر العبدُ سَيرَه على ذلكَ الصِّراط مِن سَيْره على هذا حَذْو القُذَّة بالقُذَّة، جزاءً وِفاقًا، {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النمل:90].

ولْيَنظر الشُّبُهات والشَّهواتِ الَّتي تعوقُه عنْ سَيره على هذا الصِّراط المستقيم، فإنَّها الكَلاليب الَّتي بجَنْبَتَي ذاك الصِّراط تَخطَفُه، وتَعُوقه عنِ المرور عليه، فإنْ كَثُرت هُنا وقَويت، فكذلكَ هيَ هناكَ {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [فصلت:49]».

مَن كانَ في هذه الحياة الدُّنيا تَخطَفُه الشُّبهات والشَّهواتُ عن الصِّراط المُستقيم، فستخطفه الكلاليبُ الَّتي على جَنبَتي الصِّراط يوم القيامة مثلَما خطفَته الشُّبهات والشَّهوات في الدُّنيا .

والعبد في هذا المقام يحتاج إلى نوعين من الهداية ليسلم له سيره، وهما: الهداية إلى الصِّراط المستقيم، والهداية في الصِّراط المستقيم.

قال ابن القيِّم: «فالهدايةُ إلى الطَّريق شيءٌ، والهدايةُ في نفس الطَّريق شيءٌ آخر، ألَا ترى أنَّ الرَّجل يعرف أنَّ طريق البلد الفُلاني هو طريق كذا وكذا، ولكن لا يحسن أن يسلُكَه، فإنَّ سُلوكَه يحتاج إلى هدايةٍ خاصَّة في نفس السُّلوك، كالسَّير في وقت كذا دونَ وقت كذا، وأخذِ الماء في مفازةِ كذا مقدارَ كذا، والنُّزولِ في موضع كذا دون كذا، فهذه هدايةٌ في نفس السَّير قد يهملُها مَن هو عارفٌ بأنَّ الطَّريقَ هي هذه، فيهلَكُ وينقطعُ عن المقصود».

نسأل الله أن يهدينا إليه صراطا مستقيما ، وأن يثبت قلوبنا على طاعته إنه سميع مجيب، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.